﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: 199]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المشابهة بين مصير المؤمنين من المسلمين، والمؤمنين من أهل الكتاب

لَمَّا ذكر اللهُ ﷻ حالَ المُؤمنينَ المتّقين، في مقامات النّعيم، وذكر حالَ الكفَّار مِن قبلُ بأَنَّ مصيرَهم إلى النَّار، بيَّن في هذه الآية أَنَّ مَن آمنَ مِن أهل الكتاب

بوحدانيّة اللّه وعبده واتّقاه، وبالقرآن المنزل وصدّق مؤدّاه، وبالكتب السّابقة، في ذلّة وخشوع للّه، من غير أن يشتري بها ثمنا قليلا، من حطام الدّنيا الحقير، أولئك لهم ثواب عظيم عنده ربّهم، يوم يلقونه، فيوفّيهم إيّاه كاملا غير منقوص، لأنَّ اللّه سريع الحساب، لا يعجزه إحصاء أعمالهم، ومحاسبتهم عليها"[1]، وقد جاء هذا السّياق لتأكيد أنّ وصف مؤمني أهل الكتاب الصّادقين، داخل في صفة الّذين اتَّقَواْ، لا صفة الّذين كفرواْ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰشِعِينَ﴾: الخشوع: رميُك ببصرك إلى الأرض، والخشوع والتّخشّع والتّضرّع واحد، قال الشّاعر:

وَمُدَجَّجٍ يَحْمِي الْكَتِيبَةَ لَا يُرَى *** عِنْدَ الْكَرِيهَةِ ضَارِعًا مُتَخَشِّعًا[3]

والخاء والشّين والعين يدلّ على التَّطامُن والانخفاض، ومنه قولُهم: خشَعَ فلانٌ؛ إذا تطامَنَ وطأطأَ رأسَه[4]، ومنه خُشوعُ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/472.
(3) الخليل، العين: (خشع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشع).

الصَّوت؛ وهو انخِفاضُه، كما في قول الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: 108]، أي: انخَفَضَت لِمَهابَتِه سبحانه[1]، والخُشوع في الشَّرع: قيامُ القلب بين يدي الله تعالى بالخضوع والذُّلِّ والافتقار إليه وبالجوارح[2]. وقولُ الله ﷻ: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي: خاضعين له سبحانه[3].

2) ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: من شَرَى الشَّيءَ يَشْرِيه، بمعنى باعَه، والشِّين والرَّاء والحرف المُعتلُّ، تدلُّ تَصريفاتُها على معانٍ، منها: التَّعارُض مِن اثنَين في أَمرَين أَخذًا وإعطاءً مُمَاثلةً[4]. ومنه قولهم: شَرَى الشَّيءَ واشتراهُ؛ إذا أخذه مِن مالِكِه بالثَّمَن، وهذا الفعلُ مِنَ الأَضداد؛ يُطلَق على الشِّراء والبيع[5]، فالاشتراء: أخذُ الشَّيء بثمنٍ، أو إعطاؤُهُ بثمنٍ[6]، ومِنَ الثَّاني قول الله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوه[7]، وَالشُّرَاةُ الْخَوارِجُ سُمُّوا بذلك لأنَّهم غَضِبُوا وَلَجُّوا، وأمَّا هُمْ فقالُوا نحن الشُّراةُ، لَقَوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة 207]، وقوله تعالى ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: 111]، ولذلك قال قَطَرِيُّ بنُ الفُجاءَةِ وهو خارِجيّ المذهب:

رَأَتۡ فِئَةً باعُواْ ٱلۡإِلَهَ نُفُوسَهُمۡ *** بِجَنَّاتِ عَدۡنٍ عِنۡدَهُ وَنَعِيمِ[8].

3) ﴿ثَمَنَا﴾: (الثّمن) أي ثمن المبيع، وهو ما يعاوضه، يقال: (أثمنت) الرّجل متاعه، وأثمنت له، وشيء (ثمين) أي مرتفع الثّمن[9]، والثَّاء والميم والنُّون تدلُّ أكثرُ اشتقاقاتها على معنى: عِوَض ما يُباعُ[10]، وثمَنُ كُلِّ شيءٍ: قِيمَتُه[11]. والثَّمنُ القليلُ في قول الله تعالى:

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/39.
(2) ابن القيِّم، مدارج السّالكين: 1/516.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/383.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شري).
(5) أبو بكر الأنباريّ، الأضداد، ص: 72.
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير: (شري).
(7) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 7/2115.
(8) ابن سيده، المحكم: (شري).
(9) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ثمن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمن).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثمن).

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الدُّنيا بحذافيرها[1]؛ وجُعِلَ الثَّمنُ مُشتَرًى كسائر السِّلَع؛ لأنَّ كُلًّا من الثَّمن والمُثمَن مَبيعٌ[2].

4) ﴿أَجْرُهُمْ﴾: أجَر اللّٰه عبدَه: أثابه[3]، وفي الحديث: «وَإِنَّ الْمُسْلِمَ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ»[4]، والهمزةُ والجيم والرَّاءُ، تدورُ تَصاريفُها على معنى: الكِراء على العمل، وجَبرِ العظمِ الكسيرِ، وبين هذين المَعنَيَينِ نِظامٌ يجمعُهما؛ وذلك أنَّ الأجرة بمنزلة الشَّيء الّذي تُجبَرُ بها حالُ العاملِ مقابلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهدٍ في عمله[5]. والأجرُ: ما يعود مِن ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفع دُون الضّرِّ[6]، والأجر في قول اللّٰه تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هو ثوابُ العمل الأخرَويُّ.

5) ﴿ٱلْحِسَابِ﴾: الحاء والسِّين والباء تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ، منها: العَدُّ[7]، ومنه: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[8]، ومنه أيضًا: الحَسَبُ؛ وهو الفَعال الحَسَنُ له ولآبائه، مأخوذ من الحِساب؛ وذلك لأنَّهم يَعُدُّون ذلك في مناقبهم[9]، والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المحاسبة، والمُرادُ به عَرضُ كلِّ أعمال الشَّخص وتقويمُها[10]. والحسابُ شرعًا نوعان: حسابٌ يَسير، وحساب عَسير. أمَّا اليَسير فهو أن يَخلوَ اللّٰه ﷻ بعبده المؤمن، ويُقَرِّرَهُ بذنوبه. وأمَّا العسيرُ فهو أن تُعَدَّ أعمالُهم وتُحصى، فيُوقَفون عليها، ويُقَرَّرون بها[11].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنّ بعضًا من أهل الكتاب لَيُصَدِّق ويُقِرُّ - إقرارًا يستلزِمُ القبولَ والإذعانَ - باللّٰه تعالى ربًّا واحدًا، وإلهًا معبودًا بحقٍّ، وبما أُنزِل مِن القرآن، وبما أُنزِل مِنَ التَّوراة والإنجيل،

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 3/847.
(2) الهرويّ، الغريبين: (ثمن).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أجر).
(4) البغويّ، شرح السّنة: 14/280.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(6) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(8) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسب).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حسب).
(11) ابن تيميَّة، العقيدة الواسطيَّة، ص: 98.

حالَ كونِهم خاضعين للّه سبحانه، مُستَكينينَ له، مُتَذلِّلينَ لعظمته، لا يستبدلون بآيات اللّه شيئًا مِن حُطام الدُّنيا الفانية، ولا يكتمون ما أنزلَ اللّه تعالى على أنبيائهم، ولا يُحَرِّفونَه كما هي عادة أَهل الكتاب، أولئك لهم ثوابٌ عظيم عنده يومَ يلقَونَه، وهو سريعُ المحاسبة لخلقِهِ؛ فلا يعجزه إحصاءُ أعمالهم، ولاتقرير مصائرهم[1].

التّنويه بمؤمني أهل الكتاب، ممّن آمن وخشع، ومالهم من الثّواب عند الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سبب وَصلِ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بما قبلها:

قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ معطوفٌ على قوله قبلُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لاتِّفاقِهما في الخبرية واشتراكِهما في الاسميَّة، ولِمَا بينهما من التَّناسُب؛ فجملةُ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ استكمالٌ لذِكر الفَرقِ في تلقِّي الإسلام؛ إذِ المَذكورون فيها فريقُ المؤمنينَ مِن أَهل الكتاب[2].

في الوصل بيانٌ لأحوالِ النّاس في تَلَقِّي الإسلام

فائدة وَصفِهم بـ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

التَّعبير عن هذا الفريقِ بأنَّهم مِن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ إشعارٌ بأنَّهم لم يكونوا مَعروفين بتلك الأوصاف المَذكورَة؛ لأنَّهم لو عُرفوا بالإيمان؛ لَمَا كان في وصفِهم بأنَّهم من أهل الكتاب فائدةٌ[3].

الإنصافُ واجبٌ ولو مَعَ الكفَّار

وفي التَّنصيص على هذا الوصف أيضًا بيانٌ؛ لأنَّ أهل الكتاب ليسوا كُلُّهم على الحال الّتي حُكِيَت عن جماعةٍ منهم؛ من نَبذِ الميثاق، وتحريف الكتاب، وكَتم الحقِّ[4]، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/499 - 501، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/166، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/207.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/207.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.

تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

نُكتة العُدول عَنِ الفعل الماضي ﴿ءَامَنَ﴾ إلى المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

مازال الإيمان في أفـرادٍ مـن أهل الكتاب زَمنًا بعد زمنٍ

عُدِلَ عن التَّعبير بالفعل الماضي (آمَنَ) إلى التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، وإن كان إيمانُ مَن نَزَلَت فيهم الآيةُ واقعًا بالفعل؛ وذلك للإشارة إلى دوام إيمانِهم واستمرارِه، وأنَّه ليس بإيمانٍ عارضٍ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذا الوصفَ غيرُ منقطعٍ عن أفراد أهل الكتاب، بل لا يزال يُوجدُ هذا الوصفُ فيهم زَمنًا بعد زمنٍ[1].

نكاتُ تقديم الإيمان بالقرآن على الإيمان بما أُنزِل إليهم:

الـــقـــرآنُ هـو الكتابُ المُهَيمنُ على ما سواهُ مِنَ الكُتُب

قُدِّمَ إيمانُهم بالقرآن الكريم على إيمانِهم بما أُنزِلَ إليهم مِنَ التَّوراة والإنجيل في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ مع أنَّ الأمرَ في الواقع بعكس ذلك؛ لِنكاتٍ خمسٍ[2]:

إحداهما: لبيان أنَّ الإيمانَ بالقرآن الكريم هو المعيارُ الّذي يُعتدُّ به.

ثانيها: للإيماء إلى أنَّه لا عِبرةَ بإيمانهم إن لم يُوافِقوا ما في القرآن الكريم.

ثالثها: أنَّ ما أُنزِلَ إليهم قد حرَّفوا كثيرًا منه، فلا يُعتَدُّ بما في كُتبهم إلَّا ما صحَّحه القرآن الكريم.

رابعها: لتعجيل مَسَرَّة المؤمنين بذكر ما أُنزل إليهم أوَّلًا.

خامسها: أنَّه قُدِّمَ ما هو مُستبعَدٌ حصولُهُ فيهم؛ فكان تصويرُ الإخبار بإيمانِهم به أَهَمَّ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/484.

(2) البسيلي، التّقييد الكبير، ص: 622، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136، والآلوسّي، روح المعاني: 2/383.

بلاغة المجاز في قوله ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

وجـــه المـجـاز حقارةُ الدُّنيا بما فيها مقابل آيات الله تعالى

في التَّعبير عَنِ الاستبدال بالاشتراء في قوله سبحانه: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجه وجهان:

أحدهما: أن يكون ذلك مِن باب المجاز المُرسَل، بعلاقة الملزوميَّة؛ حيث أُطلِقَ المَلزومُ وهو الاشتراءُ، وأُريدَ لازمُهُ، واللَّازم ههنا له وجهان؛ الاستبدالُ، والحرصُ على شيءٍ، والزُّهدُ في ضدِّه.

فعلى اللَّازم الأوَّل - وهو الاستبدالُ - ؛ يكون المعنى: أنَّهم لا يستبدلونَ آيات الله تعالى بالثَّمن القليل.

وعلى الآخر؛ يكونُ المعنى: أنَّهم لا يَحرِصون على الثَّمن القليل، ويزهدونَ في آيات الله تعالى.

والآخَرُ: أن يكون ذلك مِن باب المجاز بالاستعارة؛ حيثُ استُعير الاشتراءُ للإعراض عمَّا في حيازة المرء طالبًا تحصيلَ غيره - وهذا في الأصل: يكونُ في المعاني، ويكون في الأعيان.

ويَحتَمِلُ أن تكون الاستعارةُ في كلمة (آيات)؛ بأَن يُقالَ: شُبِّهت الآياتُ بالمال، بجامع وقُوع المُعاوضة في كلٍّ، فحُذِف المشبَّه به ورُمز له بشيءٍ مِن لوازمه، وهو ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ على طريق الاستعارة المكنيَّة الأصليَّة.

وجَعلُ الثَّمَنِ مُشترًى لا مشترى به للإيماء إلى كونه بمنزلة الثَّمَن في الاسترذال والامتهان، ففيه حطٌّ من شأن الدُّنيا وما فيها مقابل آيات الله تعالى.

سرُّ إفراد الثَّمن وتنكيره:

الدُّنيا بحذافيرها ثـمـنٌ قـلـيـلٌ، حقيرٌ

أُفرِدَ ﴿ثَمَنًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ لإرادة تحقيرِه، ويُقَوِّي هذه الدِّلالَةَ وجهان:

أوَّلُهما: إيرادُهُ مُنَكَّرًا؛ فإنَّ التَّنكيرَ ههنا مُفيدٌ معنى حقارة الشَّيء المُنَكَّر.

والآخر: وَصفُهُ بالقِلَّةِ في قوله: ﴿قَلِيلًا﴾، وهو وصفٌ لا يُرادُ به الاحترازُ، بل هو لبيان الواقع[1]؛ وأنَّ الثَّمنَ في مقابلة آيات الله تعالى لا يكون إلَّا قليلًا ولو كان ذلك الثَّمَنُ هو الدُّنيا بحذافيرِها[2]، فدلَّ مجموعُ ما تقدَّمَ على حقارة الثَّمن قدْرًا ووصفًا.

بلاغة التَّعريض في قوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

ذِكْرُ عدم اشترائهم بآيات الله تعالى ثمنًا قليلًا في سياق المدح والثَّناء عليهم في قوله سبحانه: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يُرادُ به الثَّناء عليهم بلازم ذلك، لا بمجرَّد عدم الاشتراء؛ لأنَّ العدمَ المحضَ لا يكون مدحًا، واللَّازمُ المرادُ الثَّناء عليهم به هو إظهار ما في كُتُبِهم مِن شَواهِدِ نُبوَّة النَّبيِّ محمَّد ﷺ[3].

ذمُّ أَحبار اليهود مَـــعَ إِقـامـــة الـبرهـــان على وجه الذَّمِّ

وتضمَّنتِ الجملةُ تعريضًا[4] بأحبار اليهود؛ إذ كانوا يقبلون الرِّشوَةَ، ويأخذونها عوضًا عن تحريفهم لآيات الله تعالى في كُتبهم المُنزَلة[5]، والغرضُ مِن هذا التَّعريض المبالغةُ في الذَّمِّ مع إقامة الدَّليل على وجهه.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾:

شـرفُ مُؤمِنـي أَهـل الـكـتـاب، وتـمـيّـزهـم، وعُـلُـوُّ رُتبَتِهم؛ بتحصيل كمال الأجرِ

أُشِيرَ إلى هذا الفريق مِن أهل الكتاب باسم الإشارة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ إشعارًا بأنَّهُم متميِّزُونَ بتحصيل كمال الأجرِ أكملَ تمييزٍ، وهذا أَبلَغُ في مدحِهم والثَّناءِ عليهم، وزادَهُم مدحًا وشرفًا ما في ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مِنَ الدّلالة على البُعدِ المُقتضِي عُلوّ رُتبتهم، وبُعد منزلتِهم في الشَّرف والفضيلة، واستحقاقهم تفضُّلَ الله تعالى

(1) البسيلي، التَّقييد الكبير، ص: 623.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.
(4) التَّعريض: اللَّفظ الدّالُّ على الشيَّء مِن طريقِ المفهوم، لا بالوضع الحقيقيّ ولا المجازيّ، يُنظر: ابن الأثير، المثل السَّائر: 2/186.
(5) البسيلي، التَّقييد الكبير، ص: 623، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460، والآلوسي، روح المعاني: 2/384.

عليهم بالأجر، وأنَّهم مُتوغِّلون في أسباب ذلك للغاية[1]، وأنَّهُم أَحرياء بما سيَرِدُ من الإخبار عنهم[2].

فائدة تقديم الخبر في قوله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾:

قُدِّمَ الخبَرُ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿أَجْرُهُمْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ لإفادة القصر والاختصاص، فذلك الأجرُ الّذي وُعِدُوهُ خاصٌّ بهم دُونَ سائر أهل الكتاب مِمَّن لم يُؤمِن بالقرآن الكريم، فهو قصرٌ إضافيٌّ[3].

تَحصيلُ الأَجر والثَّواب خاصٌّ بمَن آمَنَ بالقرآن الكريم

فائدة الإضافة في قوله ﴿أَجْرُهُمْ﴾:

إضافةُ الأجرِ إلى ضمير مُؤمِني أهل الكتاب ﴿أَجْرُهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يُرادُ به: العَهدُ؛ أي: الأجرُ المختصُّ بهم، المَوعودُ لهم في قول الله سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[4] [القصص: 54].

في الإضافة تخصيصُ مُؤمني أهل الكتاب بالأجر

سرُّ اختيار التَّعبير باسم الله (الرَّبِّ):

جاء التَّعبير باسم الله (الرَّبِّ) في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الأجرَ الّذي وُعِدوا به عظيمٌ جزيلٌ؛ لكونهِ مِن عند الرَّبِّ العظيم، ويُقوِّيه قوله: ﴿عِندَ﴾؛ فإنَّ فيه تَشريفًا[5]؛ إذِ العنديَّةُ مُشعِرَةٌ به.

من لطف الله تعالى دوام إحسانه لأهل الإيمان

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ الّذي خلقَهُم ورَزَقَهُم وربَّاهم بنِعَمِه؛ لم يقطَع إحسانَهُ عنهم لحظةً[6]، وفيه مِن معاني اللُّطف ما لا يخفى[7].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167، والآلوسّي، روح المعاني: 2/384.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/207.

(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/459، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/408.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 2/384.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 4/260.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 2/384.

بلاغة الاستتباع في الآية:

دقّـــة ترتيـب الألفاظ في البيان القرآنيّ

في قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ استتباعٌ بديعٌ[1]؛ وذلك أنَّ الله تعالى ذكر أنَّ هذا الفريقَ من أهل الكتاب قد تحلَّى بخمسِ خصال:

أوَّلُها: إيمانُهم بالله تعالى.

ثانيها: إيمانُهم بما أُنزل على النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ.

ثالثُها: إيمانُهُم بحقيقة ما أُنزل عليهم.

رابعُها: الخوفُ مِنَ الله تعالى مع الضَّراعة إليه، وطلبِ رِضاه.

خامسُها: عدمُ إيثارهم شيئًا على آيات الله سبحانه.

وهذه الخصالُ الخمس يَستَتبِعُ بعضُها بعضًا، ويأخذُ بعضُها بِحُجَزِ بعضٍ؛ وذلك أنَّهُ "يترَتَّب على الإيمان الصَّادق بالله: الإيمانُ بمُحَمّد ﷺ، والإيمانُ بما نُزِّل على النَّبيِّين الصَّادقينَ، ويترَتَّب على هذا كلِّه: الخشوعُ، وأولى ثمرات الخشوعِ ألَّا يَترُكُوا آيات الله تعالى لأيِّ عرَضٍ مِن أعراض الدُّنيا"[2].

نُكتة الإتيان بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بعد ذكر الأَجر:

مِـن إكـرام الله تعـالى لعبـاده تَعجيلُ إيصال الأجر لهم

ذكرُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بعد قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾؛ لبيانِ أنَّ الأجر الّذي وُعِدُوا به لا يتأخَّر عنهم؛ إذِ النَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ الخَيرِ العاجِلِ[3]، وفي هذا زيادَةُ إكرام الله سبحانه لهم.

وسُرعَةُ وصول الأجر لهم مستفادٌ بطريق الكناية؛ لأنَّ سرعة الحساب تستلزِمُ سرعةَ الجزاءِ[4].

---

(1) الاستتباع: هو المدح بِشيء على وجه يَستَتبِعُ المدحَ بشيءٍ آخرَ، يُنظر: عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/625.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1559 - 1560.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1066.

(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/56.

توجيه الفاصلة بين دلالة الاحتراس ودلالة التَّذييل:

سُرعَة حساب اللـه تعالى للخلق مع كَثرتهم

جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تحتملُ وجهين:

الأوَّلُ: أن تكون إطنابًا بالاحتراس؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى لمَّا وعدَ مؤمني أهل الكتابِ إنجازَ الأجرِ، وإتمامَهُ، وإحسانَهُ، وكان قد تقدَّم قبلُ أنَّه سبحانه لا يُضيع عمل عاملٍ، ذكرًا كان العاملُ أم أنثى، وكانتِ العادةُ تقضي بأنَّ كثرة الخلقِ سببٌ لطول وقت الحساب وطولِ وقت الانتظار، وذلك يُورِثُ توهُّمَ ما لا ينبغي؛ - لمَّا كان الأمرُ كذلك - قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ قصدًا لإزالة هذا التَّوهُّم، وأنَّ اللّه سبحانه بما له مِنَ الجلال والعظمَة والكمال سريعُ الحساب[1]، ولذا أُكِّدَت الجملةُ بـ (إنَّ)، والإتيان بالجملة اسميَّةً.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ سيقَت مساقَ التَّعليل على سبيل التَّذييل الجاري مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بمعناه، والمعنى: أنَّ اللّه ﷻ "يَجزيهم بما عَمِلوا؛ لأنَّه تعالى سريع الحساب، ولم يكن سريعًا للحساب إلَّا وهو عالمٌ بالمَحسوب الّذي هو أعمالُ العباد، وإذا عَلِمَ ذلك يُوَفِّي ما يَستَأهِلُهُ العاملُ مِنَ الأجر؛ لأنَّه عادل مُتَفَضِّلٌ كريم، لا يَضيعُ عنده عملُ عاملٍ مِن ذكر أو أنثى"[2]، وهو بهذا الوجهِ كناية تَلويحيَّةٌ؛ لكثرة وسائطِها.

وعلى الوجه الأوَّل؛ يكونُ فَصلُ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عمَّا قبلَه من قَبيل الاستئناف البيانيِّ؛ إذِ الجملةُ المذكورة واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ بعثَ عليه ما تقدَّم؛ وهو: إذا كان اللّه تعالى يُجازي كُلًّا من أهل الطَّاعة وأهل المعصية وهم خلائقُ كثيرون؛ فهل يقتضي ذلك تأخُّرُ أجر أهل الطَّاعة؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 4/397.

بلاغة الكناية في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

في الكناية بيانٌ لكمالُ علم الله تعالى وعظيمُ إحسانه، أو قُربِ إنجازِ ما وَعَدَ به مِنَ الأجر

الإخبار عَنِ اللّٰه سبحانه بأنَّه سريعُ الحساب فيه كنايةٌ عن كمال عِلمِهِ بمقادير الأجور ومراتب استحقاقِها، وأنَّه يوَفِّيها أهلَها على ما ينبغي وبمقدار ما ينبغي.

ويحتمل أن يكون كنايةً عَن قُربِ إنجازِ ما وَعَدَ به مِنَ الأجر؛ لأنَّ ذلك مِن لوازمها[1]. وكلا الوَجهَينِ في الكنايةِ صحيحٌ لا تعارُض بينهما؛ فيُحمَلُ عليهما معًا، وقد جاءت هذه الجملة مؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة؛ لِمَا فيها من التّهديد والوعيد لأهل الكتاب.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشوع والخضوع:

الفرقُ بينهما مِن أَوجهٍ ثلاثةٍ: الأوَّلُ: أنَّ أثرَ الخشوعِ يظهرُ في الصَّوتِ والبصرِ، وَأثر الخضوعِ يظهرُ في البدَن[2]. الثَّاني: أنَّ الخشوعَ انقيادُ الباطن للحقِّ، والخُضوعَ انقيادُ الظَّاهر له[3]، الثَّالثُ: أنَّ الخشوعَ لا يكون إلَّا عَنِ انفعالٍ صادقٍ بجلال مَن يُخشَعُ له، بخلاف الخُضوع؛ فقد يكون تكلُّفًا، إمَّا نفاقًا، وإمّا خوفًا، وإمّا تقيَّةً أو نحوَ ذلك، ولذا تقولُ العربُ: خشعَ قلبُهُ، ولا تَقولُ: خضعَ قلبُهُ، إلَّا مِن باب التَّجوُّزِ والتَّوسُّعِ في العبارة[4].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/93، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/381.
(2) الخليل، العين: (خشع).
(3) البروسوي، روح البيان: 9/452.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 216، وبنت الشّاطئ، الإعجاز البيانّي، ص: 226.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»